الجمال في الإسلام، رؤية معرفية تربوية.

ورقة مقدمة لملتقى القيم الجمالية للنص التربوي في الفكر الإسلامي–الغرب الإسلامي نموذجا–

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الاسم: كمال

اللقب: جحيش

الرتبة: أستاذ م ب.

البريد الإلكتروني: Ka1dj5@yahoo.fr

ملخص البحث.

تهدف هذه الورقة إلى تناول الجمال في الإسلام من زاوية تربوية بما يحتاجه هذا التناول من تمهيد معرفي نحسبه ضروريا لبيان الخلفية التي توجه مسار البحث في هذا المضمار، فالجمال في الإسلام لا يمكن لأي تناول جزئي أن يلم بأطرافه، ولا أن ينزله مكانته كما هي في حقيقة الأمر في البنية الإسلامية، خاصة إذا كان هذا التناول يتم في نطاق التجربة القيمية الجمالية الأوربية.

ذلك أن التشويه الذي لحق منظومة القيم الإسلامية عامة بما فيها ما يتصل بالجمال على وجه الخصوص على مستوى الممارسة، المتمثل خاصة بإلحاقه وإدراجه في دائرة القيم الغالبة ذات التوجه المادي العلماني، يستوجب في تقديرنا العمل على تجلية هذا المفهوم، وتخليصه من طغيان جمال الشاشة والصورة، ليعيده إلى مقامه الأصلي، مقام القيمة التي نعاير بها، بعيدا عن التجسيد والحصر في الصور المشاهدة.

وباستحضار هذه الخلفية يبرز لدينا السؤال المركزي الذي نروم تقديم مقاربة بشأنه، يتمحور حول طبيعة الممارسة القيمية الجمالية في الإسلام، فما طبيعتها وتجلياتها، وما هي امتداداتها التربوية؟

احتاجت محاولة الإجابة على مثل هذه الأسئلة إلى منهج استقرائي وتحليلي يستحضر نصوص الوحي المؤسسة لمفهوم الجمال في الإسلام، مع الاستعانة بشيء من المقارنة الكلية مع الرؤى الأخرى خاصة الرؤية الحديثة التي برزت معالمها في سياق التجربة الأورو أمريكية.

كان من النتائج المتوصل إليها أن الجمال في الإسلام يشمل الحياة بجملتها، فلكل شيء من الذوات والمعاني جماله، فلا يقتصر ذلك على المحسوس، ولا يلتمس الجمال في المحسوسات وحسب، بل يلتمس في كل شيء من مخلوقات الله، لكن إدراك هذا الجمال بشكل أتم وأوفى لا يكون إلا بالتقوى بكل معانيها، وكلما ترقى الإنسان في مدارج التقوى كلما حصل نصيبا أوفر من الجمال.

الكلمات المفتاحية: الجمال، القيم، التقوى، التربية.

قال غوستاف لوبون في كتابه روح التربية[1]، وهو يستعرض مقترح المسيو بول جبران حاكم الهند الصينية حول ما يجب أن تكون عليه مناهج التعليم في المستعمرات: " إن هناك ألفاظا تدل على معاني يظهر أنها مشتركة بين الناس جميعًا والحق أنها مختلفة كل الاختلاف، فالمثل الأعلى من الجمال عند الفرنسيين يخالف المثل الأعلى من الجمال عند الآسيويين والإفريقيين، وحب الخير عند المسيحيين يخالف حب الخير عند الهنود وعند المسلمين. ولكل لغة مهما اختلفت في الرقي أو الانحطاط آراء ومعانٍ تدل عليها ألفاظ ولا يفهمها إلا أهلها، وهي تخالف آراء اللغات الأخرى ومعانيها كما تختلف ألفاظ اللغتين. فإذا ألقيت العلم إلى الهنود بلغة الفرنسيين فلن يفهموا العالم كما تفهمه أنت وكما تدل عليه لغتك، وإنما يفهمونه كما تعودوا أن يفهموه وكما تدل عليه لغتهم، يستعيرون ألفاظك ويدلون بها على معانيهم".

وبغض النظر عن الأهداف الخفية لهذا النص، فإنه يؤكد على مسألة أساسية، هي أن أي نص تربوي، وإن شئت قلت أي نص مكتوب في أي لغة يستبطن بالضرورة قيم تلك الأمة الناطقة بتلك اللغة، ذلك أن القيم بكل أبعادها مبثوثة في ثنايا الحروف وفي ثنايا الكلمات، وإن شئت قلت إنها تخرج مع أنفاس الناطق بها.

تنبني نظرية القيم في كل حضارة على رؤيتها للعالم، للإنسان ولطبيعة العلاقات الإنسانية، للحياة والغاية منها، والنص الذي مر بنا سابقا يؤيد هذا ويؤكده، إن هذا يفرض علينا قبل الولوج إلى بيان ما يحيل عليه الجمال في الإسلام من مدلولات وما يترتب عليه من معان، يفرض علينا أن نشير ولو بإيجاز بحسب ما يخدم الغرض إلى الرؤية الحاكمة التي على أساسها تم تصنيف نظرية القيم في الفلسفة الحديثة، حين قسمتها إلى ثلاث: قيم الحق وقيم الخير وقيم الجمال، لتستبين لنا جملة من

[1] غوستاف لوبون، روح التربية، ص222، 223.

المسائل لعل أهمها: هل هذا التصنيف يتفق مع الرؤية القرآنية؟ وهل يمكن أن نتبنى هذا التقسيم في رؤيتنا لقيمنا؟ لنصل بعدها إلى: أين يتموضع الجمال في البنية الإسلامية؟

إن هذه المساءلة المعرفية قد تسبب إزعاجا لأولئك الذين اعتادوا على تقبل كل ما يفد عليهم تحت يافطة الفلسفة الأوربية، الحديثة أو المعاصرة، إذ لا سبيل في تقديرهم إلى هذه المراجعة، فتقسيم القيم على هذا المنوال استقر من زمان، ومن العبث مناقشته بله الاعتراض عليه.

ليس من العسير اكتشاف الرؤية العامة الحاكمة للمنتوج المعرفي والفني في أوربا الحديثة، ذلك أن تجلي فكرة إحلال الإنسان محل الله، وإحلال المعرفة الإنسانية محل المعرفة المأخوذة عن الكتاب المقدس هي من أبرز ما يمكننا ملاحظته على ذلك التحول الخاص في أوربا، ليس عسيرا بعد ذلك أيضا أن ندرك أن تحول المعرفة من الله إلى الإنسان لابد أن يلحقه نقل للقيم هي الأخرى من الله إلى الإنسان، حيث يصبح مدارها بالكامل حول الإنسان، وعلى هذا الأساس يتم بناء هذا التصنيف ليناسب الروح الجديدة، حيث قيم الحق كما يراها الإنسان، وقيم الخير كما يراها الإنسان، وقيم الجمال كما يراها الإنسان أيضا، فليس من المناسب أن تبقى هذه القيم معيارية، وأنى لها أن تكسب هذه الميزة والإنسان هو الذي أوجدها، فالإنسان هو مقياس الأشياء جميعا.

بناء على ما سبق فالجمال في الثقافة الأورو أمريكية والثقافات التي تسير في ركبها لا يجاوز جمال الصورة الظاهرة، الجمال كما يبديه الحس، تماما كما هو حال بناء المعرفة لديها فاذا كانت المعرفة مبنيه على المحسوس ولا دور للممارسة العقلية سوى تشذيب هذه المعرفة وترتيب عناصرها، كذلك الجمال ليس إلا جمال الصورة والمظهر، وهو ما نفر القرآن الكريم منه، في قوله تعالى، **فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**" التوبة 55، وهنا يحضر وصف محمد اقبال لحضارة أوروبا حين قال "وجهها قوي ناظر وقلبها مظلم فاجر".

هذا التجسيد للجمال واختصاره في المحسوس، وعده أعلى المراتب، وربطه بالمنزع الفني لدى الإنسان، بل والسعي لجعل الفن بديلا عن الدين، هو ما جعل كل المدن الكبرى في أوروبا تتربع في ساحاتها تماثيل مختلفة الأحجام والأشكال لكن ما يجمعها هو أنها تماثيل لا ترضى نفوس ذوي الاذواق السليمة أن تشاهده، لقد قام بنحتها مايكل أنجلو[٢] (أيقونة فن النحت في العصور الحديثة في

[٢] مايكل أنجلو (1475-1564م)

أوربا)، ليعلن افتتاح عهد التمرد على جمال الحياء والخروج عن جمال الذوق السليم سليل الفطرة السليمة، جاعلا الإنسان إلها يعبد، بعد أن أضفى عليه من الجمال ما اعتقد أنه لا يكون إلا للآلهة.

بعد هذا التناول السريع لمعنى الجمال في المنظومة الحديثة يمكن نعيد طرح السؤال السالف الذكر، هل هذا التصنيف يتفق مع القرآن الكريم؟

أولا: الجمال الإسلامي، حديث في المفهوم.

الجمال في اللغة:

ورد لفظ "جمال" غير محلى بالألف واللام، في القرآن الكريم في سبعة مواضع، مرة واحدة في سورة النحل، قال عز وجل: " ولَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ" النحل 6، مرتان في سورة يوسف، قال عز وجل:" وجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ"18، وقوله عز وجل:" قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" 83، مرتان في سورة الأحزاب، قال عز وجل:" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا "28، وقوله:" يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا " الآية 49، مرة واحدة في سورة الحجر، قال عز وجل:" ومَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ"85 وأخرى في سورة المعارج، قال عز وجل: "اصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا"الآية5، ومرة واحدة في سورة المزمل: " وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا"10، كما وردت هذه اللفظة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله جميل يحب الجمال"[٣].

وعند النظر في هذه الآيات يتضح أن هذه الكلمة وردت أوصافا لذوات ومعان، هذا يفيد أن الجمال لم يرد بوصفه قيمة، بل ورد وصفا لقيمة، وأما حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فيتفق مع ما جاء في الآيات الكريمات، وقد ذكر الخطابي في معناه على ما نقله النووي قوله: إن الله جميل، أي جميل الفعال بكم. اهـ.

---

[٣] أخرجه مسلم في صحيحه.

وهناك ألفاظ أخرى وردت في القرآن الكريم تفيد معنى الجمال منها " زينة" كما في قوله عز وجل:" إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَة لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا "، وهذا اللفظ ورد باشتقاقات عدة، وهي في مجملها تدور حول الزينة التي بثها الله عز وجل في مخلوقاته وسخرها للإنسان، وقرنها بالابتلاء، فهذه الزينة المبثوثة في السموات والأرض كما تكون مرقاة إلى الله عز وجل، تكون مهواة إلى براثن المعصية، وهذا بحسب موقف الإنسان منها.

ومنها الحسن، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في 194 موضع، وهو يشير إلى صفة ثابتة في الشيء، سواء في الذوات أو في المعاني، ومن ذلك ما جاء في قول الله تعالى:" فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا" آل عمران 37. وقوله عز وجل"مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ"، الرحمن 76، ففي الآية الأولى وصف القبول والإنبات والتنشئة بالحسن، وهي معنوية، وفي الثانية وصف العبقري بالحسن، وهو مادي، وكذلك وصف القول والعمل، والموعظة والجدال والأجر والرزق وغيرها وهي معنوية، ووصفت الصورة به وكذا المرأة وهي مادية، وهذا يدل على شمول الوصف بالحسن للمعنوي والمادي ليدل على ما هو مرغوب وتقبل عليه النفس الإنسانية.

ومن الألفاظ القريبة كذلك، النضارة، الرونق، النعيم، وهي في مجملها مما لا يفارقه الجمال، سواء كان معنويا أو ماديا.

قد لا يكون المقام مناسبا لتناول الجمال من الناحية اللغوية، لكن غاية ما يقال هنا أن الجمال توصف به المعاني وارتباطه بالحس ليس بالأصالة بل بالتبع، في مقابل ذلك نجد في القرآن الكريم لفظا آخر وهو "الُحسن"، كما في قوله عز وجل في سورة الرحمن:" فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ" وقوله تعالى "مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ". ونترك الباقي للسامع. وأما في كلام العرب فهناك ألفاظ أخرى قريبة مثل: البهاء والملاحة وغيرها.

يبدو تناول الجمال في الإسلام لأول وهلة بفعل طغيان المفاهيم الحديثة الحداثية لا يتجاوز الحديث عن جمال الصور والأشكال، أو الألوان والزخارف، أو حتى جماليات الخطوط والمباني، ليس هذا غريبا في عالم تتم فيه عولمة جميع القيم العلمانية بعنف لا نظير له، بما فيها قيم الجمال،

بل أضحى العنف نفسه بكل أشكاله يسوق على أنه يمثل ذروة الجمال في الحضارة الحديثة[٤]، بل وأصبح التباهي بالتقاط الصور على أشلاء المظلومين أمرا معتادا لا يثير شيئا.

والحقيقة أن الجمال في الإسلام لا يمكن لأي تناول جزئي أن يلم بأطرافه، ولا أن ينزله مكانته كما هي في حقيقة الأمر في البنية الإسلامية، خاصة إذا كان هذا التناول يتم في نطاق التجربة القيمية الجمالية الأوربية الحديثة.

إن التشويه الذي لحق منظومة القيم الإسلامية عامة بما فيها ما يتصل بالجمال على وجه الخصوص على مستوى الممارسة المتمثل خاصة بإلحاقه وإدراجه في دائرة القيم الغالبة ذات التوجه المادي العلماني إن هذا يستوجب العمل على تجلية هذا المفهوم، وتخليصه من طغيان جمال الشاشة والصورة، ليعيده إلى مقامه الأصلي، مقام القيمة التي نعاير بها، بعيدا عن التجسيد والحصر في الصور المشاهدة.

ندرك أن المقصد التربوي حاضر بوضوح، ذاك الذي يهدف أساسا إلى ترويض النفس على تجاوز الصعاب دون ضجر أو تشكي، ومنها مكابدة عناء الفقد، كما في سورة يوسف، إذ كان تصبر يعقوب على فقده الولد، وفي سورة الأحزاب مكابدة ألم التسريح والطلاق الذي هو من جنس الفقد، فيكون تحمل هذه المكابدة لوجه الله جميلا، ونفس الأمر بالنسبة لمكابدة عناء الدعوة إلى الحق وتحمل صور الإعراض كما في سورة المعارج، فأعلى صور الابتلاء ينبغي أن يصحبها جمال يشعر برحمة الله الواسعة. وكل ذلك وصف بالجمال لأن له تعلقا بالاستجابة لأمر الله عز وجل، ولأن جزاءه روضات الجنات، وهذا دون الغفلة عن الجمال الذي بثه الله عز وجل في مخلوقاته مما يمكن إدراكه بالحس، قال عز وجل: "وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ" النحل 6، وقد خص الله عز وجل جمال الأنعام بالذكر تمثيلا لنظائره في مخلوقاته من جهة ولخفائه إلا على من ملك الأنعام من جهة أخرى، وأما مظاهر الجمال (الُحسن) الأخرى في السموات والأرض، في البحار والوهاد والجبال، فهي مما يشترك الناس في إدراكه، بل إن هذا الجمال موصل إلى الحق تبارك وتعالى إلا من عمي بصره وانطمست بصيرته، فإنه محجوب بما أصاب من معصية عن درك الجمال الحق.

وهذا الحسن هو الذي استوقف أبا نواس فقال أبو نواس معبرا عن هذا:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك

---

[٤] يراجع في هذا الباب: جيل ليبوفتسكي وجان سيرو، شاشة العالم، ترجمة: راوية صادق.

عيونٌ من لُجَين ناظراتٌ ... بأبصار هي الذهب السبيك

على قُضُب الزبرجد شاهداتٌ ... بأنّ الله ليس له شريك.

نخلص إلى أن المفهوم الإسلامي للجمال لا يرتبط بالتراب إلا بالقدر الذي يهيئ مراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود.

ثانيا: ارتباط الجمال في الإسلام بالقيم.

يرتبط مفهوم الجمال في الإسلام بمنظومة متكاملة من القيم، وقد وصلنا إلى أن الجمال لا يمثل قيمة مستقلة، بل هو وصف ملازم للقيم الإسلامية، وهذا يفيد أنه يتغلغل في هذه القيم، ويزداد ظهوره وإشعاعه في قيمة ما بقدر التزام المؤمن بمقتضى هذه القيمة، ويمكن إدراك ذلك من خلال فحص معنى لفظ الجمال والألفاظ القريبة منه في القرآن الكريم، حيث تبين أن معاني هذه الألفاظ سواء وصفت الأشياء الحسية أو المعنوية، فهي تتشوف إلى ما تحيل عليه من معاني تتصل بحبل وثيق بتقوى الله وبكل ما يقرب العبد المؤمن من ربه.

وعليه لا يمكن تحديد سلم القيم الإسلامية بمعزل عن دين الإسلام، فهو قوامها وروحها، وإذا عرفنا أن دين الإسلام على مراتب ثلاث على ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عمر المشهور، مرتبة الإسلام، الإيمان والإحسان، فقيم الدين تبعا لذلك منها ما يرتبط بالإسلام، ومنها ما يرتبط بالإيمان ومنها ما يرتبط بالإحسان.

وصف الله عز وجل الصبر بالجمال فقال على لسان يعقوب عليه السلام" فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ"، فالصبر جميل عند حلول الرزايا والملمات، والشكر جميل عند تنزل العطايا والرحمات، وكف اللسان عن السوء بكل صوره وأشكاله جميل، وتقديم العون وجبر الخواطر جميل، وكل خلق سيء قبيح وكل خلق دعا اليه الحق وأوصى به الخلق فهو جميل. ان الجمال بهذا المعنى الاسلامي يغطي مساحة الحياة بكاملها فيضفي عليها مسحه لا نظير لها في أي ثقافه اخرى لا يكون التوحيد فيها علما يسترشد به.

إن هذه القيم هي المعيار الذي نعاير به سلوك المسلم في علاقته بربه بوصفه عبدا لله تعالى، ولكنه في الآن نفسه مكرم ومكلف، كما نعاير به سلوكه في العالم الذي سخره الله له، وكذا سلوكه مع سائر بني جنسه، فلكل ضلع من أضلاع هذه العلاقات ما يناسبه من قيم، وكلما ترقى الإنسان في مضمار القيم الضابطة لسلوكه كلما تحقق له نصيب من الوصف بالجمال، حتى إذا وصل رتبة الإحسان في

معاملة ربه، ورتبة الإحسان في معاملة أخيه الإنسان، ورتبة الإحسان في معاملة المسخرات، حصل من الجمال ما لم يحصله من قبل، وعند ذاك يكون متحققا من الوصول إلى رتبة من قال الله تعالى في حقهم:" إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰت وَنَهَر (54) فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيك مُّقۡتَدِرٍ (55) ".

فالمعيار هو التقوى، وقد قال الله عز وجل:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"

فالإنسان إما مؤمن أو كافر، أو منافق، ولكل من هؤلاء ما يناسبه من القيم، فالمسلم له قيمه، والكافر له قيمه، والمنافق له قيمه، والمسلم له درجاته التي يترقى من خلالها، والكافر له دركاته التي ينحدر فيها، أما المنافقون فهم في الدرك الأسفل من النار..

ثانيا: مفارقة المفهوم الإسلامي للجمال لمفهومه في الثقافة الحديثة

من خلال المقاربة السابقة لمفهوم الجمال في الإسلام يمكن أن نقول مطمئنين بأن الجمال الإسلامي بعيد عن مفهوم الجمال في الثقافة الأوربية الحديثة وامتداداتها، فجمال الإسلام لا يتجسد في صورة، ولا يمكن رسم حدود له، لأنه يتغلغل في كل شيء، يتغلغل في المعاني وفي القيم، فيضفي عليها جاذبية لا نظير لها، ويتغلغل في الموجودات المحسوسة، على وجه يتهيأ معه الانسان إلى الإذعان لربه.

إن تلمس الجمال الحق يحتاج من الإنسان على وجه العموم أن يسعى لاستعادة ذاكرته الجمالية الفطرية، تلك التي خلق عليها في مبتدأ أمره، إن هذا التذكر من شأنه أن يجعل الإنسان يستأنف رحلته في مسار التقوى.

ثالثا: تجليات الجمال في الممارسة التربوية، أو ماذا يعني الجمال تربويا؟

الجمال كما مر معنا يشمل جميع الأشياء المادية والمعنوية، يبدأ من القول الحسن، لينتهي بالعمل الحسن، فعندما نحسن ترتيب كلماتنا، ولا تكون كلماتنا إلا حسنة بحيث لا نقول إلا حسنا، تنتظم أشياؤنا، وتستقيم حياتنا، فلا تسمع نشازا من القول ولا فسادا في العمل.

الجمال في الإسلام له تجليات لا تحصى، لأنها ملازمة لخلق الله تعالى، فكل شيء جميل، والإنسان المؤمن له مع الجمال موقفان، أما أولهما فيتصل بتمتعه بهذا الجمال في كل شيء، إذ هو

خلق الله تعالى، وهو من المسخرات التي سخرها الله تعالى للإنسان. وأما ثانيهما فيتمثل في أن الإنسان المؤمن مكلف أن يوجه كل نشاط يصدر عنه توجيها جماليا، وهذا ما يمكن تسميته بالتفاعل التربوي مع الجمال، لا يقتصر هذا التفاعل على التربية الجمالية وحسب، بل يمتد إلى التجربة الجمالية في حد ذاتها، تلك التي تجد معناها من خلال الترقي الدائم في مراتب التقوى، وكلما تحقق من منزلة من منازل التقوى تحقق له من الجمال ما يناسبه.

سبق التأكيد على مسألة مهمة، وهي أن الجمال ورد في القرآن الكريم وصفا للمعاني والذوات، وأن هذا الوصف إنما كانت جديرة به لارتباطها برضى الله عز وجل، كما تم التأكيد على أن القيم محددة بالوحي، وأن مدارها على التقوى، قال عز وجل:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" التوبة 119، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. فالتقوى تصل إلى أعلى مراتب الجمال عندما يصل المؤمن رتبة الإحسان، في معاملة ربه، في معاملة الإنسان، وفي معاملة المسخرات.

إن هذا الترقي لا يمكن أن يتحقق إذا لم تصاحبه عملية تربوية شاملة تستهدف إشاعة قيم التقوى، والتمكين لبيئة تسهم في ظهور المتقين، عندها يتحقق للمجتمع من الجمال بقدر ما يتحقق له من التقوى، وتختفي مظاهر العبث في كل شيء والبطش بكل شيء، تختفي من حياتنا أو تكاد، ولا شك أن أولى مدارج هذا الترقي هو ترك العبث في كل شيء، قال الله تعالى محذرا قوم هود:"أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَة تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰم وَبَنِينَ (133) وَجَنَّٰت وَعُيُونٍ (134) إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم (135)" سورة الشعراء.

خاتمة: الجمال الفطري داع إلى كل معاني الخلق الكريم.

لقد كان فهم الجمال على هذه الوجوه هو الغالب في تراثنا، بما فيه التراث المغاربي، خاصة التراث التربوي بكل ما يتصل به، بدءا بآداب العالم والمتعلم، وآداب المفتي والمستفتي، وانتهاء بالنصوص ومضامينها التعليمية التربوية في جميع تخصصاتها، فقد كانت العناية بالخط العربي حاضرة، وكانت معها العناية ببناء المساجد بزخارفها التي تزينها الآيات التي تذكر بالله تعالى أكثر حضورا، كانت قراءة القرآن الكريم والتفنن فيها وتدبر معانيها حاضرة وكان إنشاد الشعر وتذوقه مما لا يخلو منه مجلس، بل إذا شئت قلت إنه يغطي الحياة بجميع تفاصيلها، إذ كان التعبير الجميل عن المعاني الرائقة، وما يصحبها من ذوق سليم وما يشتمل عليه من قيم تربوية تهذب النفس وترتقي بها مدارج التقوى مما

نلمس حضوره في سائر النصوص سواء كانت ذات غرض تربوي مباشر، أم غير مباشر. ولعل هذا هو السر الذي جعل الحديث عن الجمال أكثر حضورا في التراث التربوي الصوفي، إذ جمع في ثناياه بين جمال العبارة وحسن الأداء وكثافة المعنى، ذلك لأن اشتغاله على خلق التقوى كان أكثر ظهورا، وكانت القناعة الحاضرة بقوة أن تجلي الجمال الحقيقي إنما يكون لعباد الله المتقين.

وصلى الله وسلم على نبيا الكريم وعلى آله وسلم.